

صورة المجتمع المغربي من خلال رحلتي

أمين الريحاني والحسن بن محمد الوزان

**The image of Moroccan society through the journeys
of Amin Al-Rihani and Al-Hassan bin Muhammad Al-
Wazzan**

محمد سرير*

جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان

Serirmohamed_2017@yahoo.com

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2025 / 12 / 30	2025 / 06 / 10	2024 / 11 / 23

الملخص:

الرحلة هي التنقل في أماكن متنوعة، ووصف مباشر لم يظهر للعين، تجمع بين طياتها عدة معطيات يستفيد منها شتى الباحثين من مؤرخين وجغرافيين وحتى الأدبيين، لأنها تدون من المشاهد الحية والتصوير المباشر، مما يجعل قراءتها غنية، ممتعة ومسلية، فعدد كبير من الروايات والقصص يمكن أن يندرج بصورة ما تحت مسمى أدب الرحلات، وهو من أقدم أنواع الأدب الذي يصور فيه الكاتب ما جرى له من أحداث وما صادفه من أمور أثناء رحلة قام بها لأحد البلدان، وتعد كتب الرحلات من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية

* محمد سرير جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان.

صورة المجتمع المغربي من خلال رحلتي أمين الريحاني والحسن بن محمد الوزان

والاجتماعية والأدبية، وهذا ما نجده ماثلا في رحلتي أمين الريحاني والحسن بن محمد الوزان.

الكلمات المفتاحية: رحلة، وصف، أدب، صورة، مجتمع

Abstract:

Travel is moving in various places, and a direct description that is not apparent to the eye, it brings together within its folds several data that benefit various researchers from historians, geographers and even literary figures, because it is recorded from live scenes and direct photography, which makes reading it rich, enjoyable and entertaining, as a large number of novels and stories can be classified in some way under the name of travel literature, which is one of the oldest types of literature in which the writer depicts the events that happened to him and the things he encountered during a trip he took to one of the countries, and travel books are among the most important geographical, historical, social and literary sources, and this is what we find evident in the journeys of Amin Al-Rayhani and Al-Hassan bin Muhammad Al-Wazzan

.Key words: Travel ; description; literature, image; society.

المؤلف المرسل: محمد سيرير serirmohamed_2017@yahoo.com

كان للأدب دورا بارزا في محاورة الشعوب ومحاولة فهمها واكتشافها بطرق مختلفة، ومن هذه الطرق نجد الرحلة التي كانت ولا زالت من الوسائل المهمة التي تدفع الإنسان إلى معرفة ذاته أولا ثم التعرف على الآخر ثانيا.

فالرحلة هي سياحة في خبايا متنوعة، ووصف مباشر لما يتراءى للعين، تجمع بين طياتها عدة معطيات يستفيد منها شتى الباحثين من مؤرخين وجغرافيين وحتى الأدبيين، لأنها تدون من المشاهد الحية والتصوير المباشر مما يجعل قراءتها غنية، ممتعة ومسلية، فعدد كبير من الروايات والقصص يمكن أن يندرج بصورة ما تحت مسمى أدب الرحلات، وهو من أقدم أنواع الأدب الذي يصور فيه الكاتب ما جرى له من أحداث وما صادفه من أمور أثناء رحلة قام بها لأحد البلدان، وتعد كتب الرحلات من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والأدبية.

كما نجد للرحلة طرفا آخر تمثل في الكتابة، التي تعدّ تسجيل للتجربة الرحلية، وتعد هذه المرحلة الثانية، أما الأولى فتكون أثناء الفعل الرحلي يكون الرحالة في حالة جمع للمادة الرحلية بما تحتويه من ملاحظات عن الطريق ووصف لمخاطرها، ومخاطبة الشخصية ومحاورتها، وملاحظة سلوكيات وأفعال الآخر، مدوّنًا في مذكراته أو يومياته مخزنًا الآخر في الذاكرة، الذي قد يذكره وقد ينساه.

من هنا اخترت رحلتين تباعدتا في الزمن وتقاربتا في الفكرة والدافع، فكل منهما يريد تبليغ رسالة للآخر محاولا وصف مشاهداته، ومحاورة الآخر من خلال عاداته وتقاليده، ومحاولا فهم الذهنية البشرية، وما يصاحبها من تغيرات نفسية وممارسات اجتماعية، معتمدين في ذلك على خيالهم الرامي إلى وصف الآخر

صورة المجتمع المغربي من خلال رحلتي أمين الريحاني والحسن بن محمد الوزان

بلغة تكاد تكون مطابقة لمقتضى الحال، لكنها أحيانا لا تسعف الكاتب في التعبير عن حقيقة ما يشعر به وما يريد وصفه، لينتج لنا بذلك نصا قريبا من الحقيقة نستطيع أن نبني من خلاله جسرا معرفيا يحقق لنا بعض المعارف التي تجعلنا نشعر بالماضي.

1. المناسبات الدينية وألبسة السكان وأخلاقهم:

يوجد بالمغرب الأقصى ظاهرة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وهي عادة معروفة في دول المغرب العربي، كما نجدها عند باقي الدول الإسلامية، ويحتفل المغاربة بمولدهم النبوي، فيلبسون لذلك الملابس البيضاء الدالة على الصفاء والسلام والسكينة، ويخرجون إلى المروج والبساتين، مهللين ومنشدين، ممجدين الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام، لكن وللأسف لم يذكر لنا الريحاني هذا الاحتفال مفصلا، بل ما رآه صدفه ويبدو أن الفكرة لم ترقه أو لم تشغل فكره، وإلا كان بحث فيها و عن أصولها وعاداتها، يقول: ((فلقد اتفق أن وصلنا إلى تطوان في اليوم الثاني من عيد المولد النبوي، وهذه الجموع من أتقياء المسلمين في الأثواب البيضاء الناصعة البياض، خرجت من المدينة للاحتفال بالعيد في المروج والبساتين))¹.

يقول الحسن الوزان في شعراء أهل مدينة فاس يوم احتفالهم بالمولد النبوي ((ينظم هؤلاء الشعراء كل سنة بمناسبة عيد المولد محمد عليه السلام قصائد في مدحه، فيجتمعون في الصباح الباكر من يوم العيد في ساحة المحتسب ويصعدون إلى المنصة التي يجلس عليها، ثم يأخذ كل واحد منهم

في إنشاد قصيدته أمام جمهور غفير من الناس، ومن قضي له منهم بالنفوق في النظم والإنشاد، ببيع اميرا للشعراء تلك السنة واعترف له منهم بذلك))².

وهي عادة يحيون فيها ذكرى مولد الرسول عليه الصلاة والسلام، وذكر مناقبه وتحوي هذه الاحتفالية أناشيد عربية عن مولده ورضاعته وبعثته، وتعبّر عن الحب والاحترام له.

ويقول عن ألبسة السكان: ((وأهل فاس أعني الأعيان منهم أناس محترمون حقا، يرتدون في الشتاء ملابس من قماش الصوف المستورد من الخارج، تتكون من سترة ضيقة جدا لها نصف أكمام توضع فوق القميص، وفوقها عباءة واسعة مخيطة من أمام، ويغطون ذلك ببرنس، ويجعلون على رؤوسهم قلنسوة تشبه ما يضعه بعض الناس على رؤوسهم في ايطاليا ليلا لكن بدون ما يغطي الأذنين، ويلفون حول القلنسوة عمامة من كتان تدور مرتين حول الرأس وتمر تحت الذقن))³

وتتجسد الأخلاق عند الشعب المغربي، التي نجدها تتسع في هذه الرحلة في حسن استقبال وإكرام للضيف، كما نجد منها العمل المتواصل لأجل توفير لقمة العيش، والقناعة بالقليل، وسنام ذلك هو الجهاد في سبيل الله من أجل تحرير الوطن، ورفع راية الإسلام، التي حاول الاستعمار طمسها، كما حظي المغربي بعزة النفس، وخاصة عند أئمتهم وفقهائهم كأبي العباس المكناسي الملقب "بالحباك"، كان بجامع القرويين، فعزل ثم دعي للإمامة بجامع الأندلس فأبى وقال: إن كان عزلي بجرحة فلا يحل لكم تقديمي، وإن كان بغير جرحة فقبولي من قلة الهمة، وهذا راجع إلى قمة الأخلاق وعفة النفس، والابتعاد عما يندسها، والفرد مهما كان فأخلاقه هي صورته وسنامه التي يحترمه بها الناس، وبها يلقي محبة في نفوسهم، وكذلك عند خالقه، أما إذا خالط النفس شر وطمع،

صورة المجتمع المغربي من خلال رحلتي أمين الريحاني والحسن بن محمد الوزان

فسدت الأخلاق ، يقول الريحاني: ((إنما الأمم الأخلاق ... صحيح ، ومن الأخلاق ما هو متين وما هو جميل، وقد تقرر لمتينة بالجميلة وقلما تعكس، فالأخلاق المتينة في المتوظفين كالاستقامة والإيباء والعزيمة، والصرامة والثبات، والجرأة الأدبية، هي كلها من المثل العليا التي تقل بمجموعها ولا تندر بمفردها في كل حكومة من حكومات العالم، وأما الأخلاق الجميلة أي اللطف والوداعة، والكرم والأريحية وما إليها من الرأفة والورع والتقوى، فهي في هذا المغربي كما هي في الشرق العربي موفورة مشهورة، وقد يصح التعميم إن قلت إن الفرق الصارخ الأظهر بين الأوروبي والعربي - المغربي والشرقي - هو في هذه الأخلاق الروحية، أي الكرم واللطف والوداعة والأريحية))⁴

إنه يقسم الأخلاق إلى قسمين: متين وجميل، ونستطيع القول أصل وفرع، فهناك من يكتسب الأصل ويحافظ عليه ويجاهد لأجله، فهو مبدأ من مبادئه لا يحيد عنه مهما كان الثمن، وهناك الفرع الذي قد تجده من الأخلاق الموجودة عند الأغلبية لكنه دون أصل، هذا ما يدل على أنه قد يزول أو يتغير حسب الطبيعة البشرية وظروف محيطها. ونلمس في قوله أن الأوروبي يتمتع بالأخلاق المتينة أكثر من العربي، أما في الجميلة فقد تكون عند العربي،

كما عرف المغرب ببعض التقاليد العربية الإسلامية، هي الاحتفال بالطفل الذي يحفظ القرآن ، ولا زالت هذه العادة موجودة فيها تشجيع على الحفظ، والخلق الحسن، ((وهذا المغرب في بعض مظاهره الاجتماعية، وعاداته وتقاليده الدينية، لا يزال اليوم كما كان منذ مئة، بل خمسمائة عام، فهذا صبي على جواد وبعض خلانه يطوفون به في المدينة، احتفالاً بانتهائه من حفظ القرآن، هي حفلة الختمة التي يفرح بها ذلك الصبي وأهله، ويهلل لها الناس

فتحييه الرجال، و تزغرد له النساء))⁵، فالقرآن يُحَفِّظ للطفل حتى يكون له ركيزة، يعتمد عليها في حياته، وهذا راجع إلى الدور الاجتماعي، ابتداء من الفرد والأسرة إلى المجتمع، بصفته عوامل أساسية في تكوين شخصيته، والقرآن يستلزم أركاناً للحفظ، وللتربية السوية، والخلق الكريم.

ويقول في هذا الحسن الوزان: ((توجد قرابة مائتي مدرسة (كتاب) للأطفال الراغبين في تعلم القراءة، في كل مدرسة قاعة كبيرة بمدرجات تستعمل كمقاعد للأطفال ولا يعلمهم المعلم القراءة والكتابة في كتاب، بل في ألواح كبيرة يكتب عليها التلاميذ ودرس كل يوم عبارة عن آية من القرآن فيختمون القرآن في سنتين أو ثلاث، ثم يستأنفون ذلك عدة مرات، إلى أن يحذقه الطفل جيداً ويحفظه عن ظهر قلب))⁶.

وقول أيضاً: ((ويحتفل هؤلاء الأطفال أيضاً بعيد المولد النبوي، ويلزم آباءهم أن يرسلوا شمعة إلى المدرسة فيأتي كل طفل بشمعته، ويحمل بعض الأطفال شمعة تزن ثلاثين رطلاً أو أكثر أو أقل، وهي شموع جميلة مزخرفة جداً، مزدانة أطرافها بفواكه عديدة من شمع، توقد في مطلع الفجر وتطفأ عند بزوغ الشمس))⁷.

كما نرى أيضاً بعض الصفات الدينية التي خالطها الهوى والبدعة، فصارت عادة شعبية لها طابع ديني، هي زيارة المقابر أو أحد الأضرحة، لتبدأ هناك الثثرة والقبل والقال، وما هي في الدين من شيء، حيث تخرج النساء قاصدين الزيارة للولي الميت، الذي تنسب له الكرامات، وقد يكون عنها بعيد، لكنه في نظر الناس ذو قدرات عجيبة، ((ومما شاهد على ذلك في العرائش، التي كانت قرية لا يتجاوز عدد سكانها ثلاثة آلاف نفس، وهي اليوم مدينة سكانها عشرة أضعاف ما كانوا في تلك الأيام، شاهد خارج القرية مقاما لولية أسماها مريانا -

صورة المجتمع المغربي من خلال رحلتي أمين الريحاني والحسن بن محمد الوزان

مرجانة - مقاما يزار كما تزار مقامات الأولياء في هذه الأيام للعبادة والتوسل، وليس هذا المقام الوحيد لولية تستغاث في بلد من بلدان الإسلام، فلا يستغرب ذلك في المغرب))⁸

ومن العادات الشعبية ما يقال عن اللحية الطويلة، التي كثيرا من الناس يرى فيها هبة ووقارا، كما نجد من يراها سخرية على حسب المثل القائل : من طالت لحيته قلت فطنته، وفي المغرب كان هناك ذوي الوزارات من طالت لحيتهم، ويذكرهم الريحاني في نصه موضعا حالهم، فالظاهر عندهم أن أصحاب اللحي هم ذوو عقل راجح وفكر متقذ، لكن التجربة أثبتت عكس ذلك فاللحية ليست معيارا للعقل والفكر، فقد تجدها عند المفكر وعند الغبي، والعقل صاحبه معروف بالحكمة والتأني في اصدار الأحكام، والتدبر في الأمور، وقد عالج هذا الأمر الريحاني من خلال رحلاته التي زار من خلالها الجزيرة العربية، وتكلم مع الكثير من الشخصيات المختلفة، ووجد الفكر والحكمة عند البعض، وفي أغلب الأحيان هم ممن تعلموا العلم من منابعه الصافية.

هذا ما يذهب إليه عامة الناس في توقير أصحاب اللحي الطويلة، فنجد من يراها سخرية، ونستطيع القول أن كل منهما ليس على صواب، وأن المبالغة في أي منهما مرفوضة وغير مقبولة، لكن كل حسب عمله وخلقه مع ربه، أما المظهر فقد يصدق الجوهر، كما قد يكون مخادعا كقوله تعالى: ((يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون))⁹.

وجاء في تاريخ الأدب ما يفسر هذه الظاهرة الدينية الشعبية:

كثرت منابها طويلة

لا تغفرن بلحية

ح كأنها ذنب الفتيلة

يهوى بها عصف الريا

يوما ولحيته قليلة¹⁰

قد يدرك المجد الفتى

وقال بن المقفع:

تأملت أسواق العراق فلم أجد دكاكينهم إلا عليها المواليا

جلوسا عليها ينفضون لحاءهم كما نفضت عصف البغال المخاليا¹¹

فأساس الدين وثبوته هو العقل، الذي يزن الأمور ويميزها، ودربه في ذلك العلم، فيبلغ به قمة التقوى ودرجة العارفين، فقد قال صلى الله عليه وسلم: ((لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله فبقدر عقله تكون عبادته))¹². هو العقل والفهم الجديد للإسلام، الذي ينبني على فقه الواقع، وعدم الانجذاب إلى بعض البدع والخرافات، فما يحدث اليوم هو تمازج الدين ببعض العادات التي أصبغت بصبغة دينية، فصارت معتقدا وسبيلا ينتهجها الناس من غير هدى.

2. التصوف والصوفية في المغرب الأقصى:

إن التصوف موضوع قديم في التراث الإسلامي، وفي وقتنا المعاصر اتخذ أشكالا أخرى، خاصة على مستوى تابعيه والقائمين على تخليد بنياته الأساسية، وهو الاعتناء بالأولياء وزيارة أضرحتهم، كما نجد فرقا صوفية متنوعة على حسب الطرق الموجودة بين القادرية، والتيجانية والرحمانية، والعيساوية، وغيرها، لكن البحث في حقيقة التصوف هو موضوع شائك وطويل، لكن ما يمكننا ذكره أن التصوف وإن عرف قديما في أناس يرتدون الصوف زهدا في الحياة، فسموا به، أو لصفاته ونصاعته البيضاء دلالة على صفاء النفس لخالقها، والتصوف مؤسس على التقوى وإخلاص العبودية لله، لكن ما نراه اليوم عند بعضهم يختلف عما سبق، حيث أصبح تصوفا شعبيا داخله كغيره عادات وتقاليد لها جذور وثنية وجاهلية.

صورة المجتمع المغربي من خلال رحلتي أمين الريحاني والحسن بن محمد الوزان

ومن الطرق الصوفية في المغرب نجد: القادرية والدراوية والتيجانية والناصرية والكتانية والعيساوية نسبة إلى محمد بن عيسى المولود في مكناس، ((وأما الأولياء فإني أعيد القول ما أكثرهم في هذا المغرب، وإنهم لفي ازدياد على عقم الزمان في القداسة، فأصغرهم سنا في الولاية هو سيدي محمد بن صديق أحمّليش المتوفى منذ اثني عشر عاما، والمدفون بقبر ذي قبة في قبيلة بونصار))¹³.

إن الريحاني يتساءل لماذا الأولياء والقباب في تزايد، والتدين والتقيس في تناقص، وكأن هذا الفعل في حد ذاته هو نقص في الدين، حتى أن أصغر ولي دفن منذ اثنتي عشر سنة، هذا دليل على كثرة الأولياء، كما يمكن أن يطرح سؤالاً: كيف يصير الولي ولياً، وما هي مقاييس ذلك؟ أهو العالم الحافظ المجتهد لربه تعالى، أم كان مصاحباً عالماً أو رجل دين، أو إمام مسجد عرف بالثقوى، هي إجابات تتطلب دراسة عن كل ولي، حتى يمكننا وضع هذه المقاييس وقياسها بمقياس تشريعي إسلامي.

ومن أشهر الطرق الصوفية تلك الطريقة القادرية لصاحبها عبد القادر الجيلاني الذي يقول عن التصوف: ((الصوفي هو من جعل ضالته مراد الحق منه، ورفض الدنيا وراءه فخدمته ورزقته أقسامه، وحصل له في الدنيا قبل الآخرة مرامه، فعليه من ربه سلامه))¹⁴. من هنا تتجلى صفات الصوفي فهو خلق كغيره لعبادة الله تعالى، لا ليتبع الدنيا ويكثر من مصاحبته، فرزه من عند الله تعالى نازل، وكما قيل في الأثر: يا عبدي لا تتعب فرزك مكتوب، ولهذا فهم عند أولي النهى. ويكون له في الدنيا هدف معين، يتجلى له نور الإيمان

ويرزق كراماته، وله من ربه سلام يزكيه به، ويشفع له يوم لا ينفع نفس إلا إيمانها وعملها.

هي صفات أولياء الله التي تبني على إخلاص العبادة لله تعالى، لذا نرى تكرر النبي صلى الله عليه وسلم لسلامة الصدور فهي أساس العبادة وهي أساس الولاية، إضافة إلى القيام بشعائر الله تعالى جميعا يجب ان يتوج ذلك بسلامة الصدور، وهذا ما يرمز إليه الصوفية بسلامة القلب، هذا هو أساس الطريقة المحبة حياة تبعث في ذات المريد فتحمله على العبادة والتفاني فيها، وتحته على بلوغ أعلى درجاتها وما زال الحب قائما وناميا حتى تتوحد الذات مع محبوبها فتصبح في ظله محمية لقدرته جليلة و لرضوانه مرضية و الحديث القدسي لا زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه.

وهكذا كان لهذه الطريقة أتباع يعملون عل نشر الطريقة الصوفية، وإفهام الناس ما جهلوه وتعليمهم، كما نجد أعمالهم شاهدة عليهم، وذلك ما يتجلى مثلا عند أبي العباس السبتي، فقد عملت دعوته على تأسيس الزوايا في مختلف أنحاء المغرب، حيث كان يلتجئ إليه الفقراء والعجزة وابن السبيل، هذا ما كان مثلا للصوفية فتتافسوا على هذه الفضائل الاجتماعية.

لكننا نجد أتباع بعض الطرق الذين حادوا عن طريق الحق، و ابتعدوا عنه مثل أتباع الطريقة العيساوية لصاحبها محمد بن عيسى في القرن السادس عشر، فما لبثوا أن ذهبوا إلى ممارسة الدروشة والعمل على الرقص، حتى يغشى على الواحد منهم ذاكرين اسم الله باستعمال آلات للغزف كالدف ويسمونه الرقص الصوفي، وفي زمنهم بالمغرب كان الحكم لمحمد الخامس فردعهم ومنعهم من ذلك، و يذكر الريحاني مظاهر هذا الرقص: ((وهاكم في المغرب النساء والرجال في الحلقات وخارجها اليد باليد، ها هنا فيثييون جميعا ويحجلون

صورة المجتمع المغربي من خلال رحلتي أمين الريحاني والحسن بن محمد الوزان

والصدر للصدر، فيهزون الرؤوس إلى الأمام وإلى الوراء، هزات عنيفة ويقعصون، وهناك الحلقات الغير المختلطة حلقات الرجال وحلقات النساء، وهاكم من النساء المتفردات كل واحدة حلقة بنفسها و لنفسها، وبينهن الصبايا الحسان، وقد احمرت خدودهن وانحلت شعورهن، وذبلت عيونهن، من الاهتزاز العنيف المستمر، فهن يهزرن الرؤوس و الصدر والأرداف، و العيون منهن شاخصة إلى الأعلى أو إلى لا شيء أمامهن، فتراهن غائبات ذاهلات، هائجات مشغوفات بما لا يعلمه غير الله، أو بمن لا يعرفه بعد الله إلا هن، هي عمارة الخضر غيلان بمظاهرها الدرويشية وبما يضطرم في صدور النساء والرجال والفتيات والفتيان، من التشوقات الروحية والجسمانية¹⁵.

نرى هذه العادة التي ما زلنا نراها إلى اليوم في المغرب وحتى بالجزائر، ولها أشياع وأتباع، وفيهم أكثر مما ذكره الريحاني، فهم يعملون على طعن أنفسهم بالخناجر ويلعبون مع الأفاعي السامة، وهم في مأمن منها فكما يقولون إنهم مرقيون أو مسقيون، وهي طريقة تبعد عن الدين بعد السماء عن الأرض، ونجد أن كثيرا من حقائق الإسلام اندثرت أو تناست، بتأثير العامل البشري والزمني عليها فغلب الغالب على المغلوب.

((بعد الإسلام عن مهده فسادت في أندلسه الفلسفة، وكادت تتغلب عليه وسادت في مغربه روح القبائل البربرية، ففتح أبوابه لتقاليدهم وخرافاتهم الوثنية، ولأوهامهم وسحرهم وتعاويذهم، بعد أن أخفق في مقاومتها، وعجز عن التغلب عنها))¹⁶. قد عادت التقاليد البربرية إلى مجراها الأول، لكن بصيغة إسلامية، فاختلط هذا بذلك، فضاعت الشرائع وأصبح الاحتكام للطبائع والأهواء، فسادت الفوضى، وقل باب الإصلاح والإخلاص لله تعالى، وفي ظل الفضاء

الاستعماري زادت هذه الطبائع قوة، وقد وجد البعض منهم الدعم من الفرنسيين فجدوا في خدمة المصالح الاستعمارية.

يقول الحسن الوزان عن الصوفية الذين شاهدتهم: ((لهذا أعرش الصوفية عن جميع أوامر الدين، سواء منها المستحبة والواجبة، ولم يعودوا يتقيدون بما يمارسه العلماء، بل راحوا بعكس ذلك يتمتعون بكل الملذات التي تعتبر مباحة في مذهبهم وهكذا يقيمون مآدب كثيرة ينشدون فيها أناشيد غرامية ويرقصون رقصا طويلا، ويحدث أحيانا في هذه اللقاءات أن يمزق أحد الحاضرين ثيابه تأثرا بما ينشده المنشدون أو بسبب الأفكار الطائشة التي قد تخطر ببال أناس فقدوا كل اتزان، ويقول هؤلاء القوم حينئذ أنهم مكتوون بلهب الحب الإلهي))¹⁷

ومما عرف عن الأولياء الكرامة، وهي المشبهة بالمعجزة عند الأنبياء، فرى الولي يشفي المريض ويغني الفقير، ويأتي إليه السارق لبيته ليسرقه فيخرج من عنده مؤمنا، وتزيد كرامات الأولياء حتى بعد مماتهم، فلهذا تكثر زيارتهم، والذبح بأضرحتهم وإشعال الشموع وغير ذلك من العادات الشعبية وبدعهم.

يقول الريحاني: ((قيل لي إن سيدي هدي في بني عروس يشفي المجانين، ولكن طريقته غير طريقة الرهبان في دير قزحيا بلبنان، طريقة سيدي هدي علمية عصرية تختص بتربيته فهو مدفون بمكان قريب من تازروت يتقشى فيها نوع من الحمى التي تصعد سريعا إلى الدماغ، فتتغلب على ما به من مرض أو اختلال، فإذا جيء بالمجنون إلى ذلك المزار لا يلبث أن يصاب بتلك الحمى، فتصعد توا إلى رأسه و تطرد الشيطان منه، تشفيه من الجنون ، إنها لعجبية العجائب، فالمعروف أن الحمى إذا ما تصاعدت إلى الرأس تحجن صاحبها، وبجوار سيدي هدي تفعل عكس ذلك، تعقل المجانين))¹⁸.

صورة المجتمع المغربي من خلال رحلتي أمين الريحاني والحسن بن محمد الوزان

فباب البركة عند الولي مفتوح، فهو يشفي المريض، ويزوج البنات، ويجعل العقيم يلد، ويحقق الرزق، وغير ذلك مما يريده الناس من الولي، وإن الفرد ليعتقد أن ذلك الولي له قدرة كبيرة وأنه منح هذه القدرة من الله، والله مستمع له مجيب لدعوته، وتصبح روحه قادرة على الفعل بعد مماته، وقدرته غير منتهية، وغير محددة في الزمان والمكان.

إن الولي تبني حقيقته على طاعة الله تعالى، لذا نجد احترامه ووقاره محفوظ، لكن الفكر الشعبي يجعل منه قديسا وجب الدعاء منه، في حين يستحب الناس به في الطاعة، ومناجاة الله تكون من عابد متنسك لرب رحيم راجيا العفو والهداية معترفا بتقصيره وضعفه مناديا لقوي عزيز بيده الرحمة هي ذي العبادة التي تمتد في الروح وتحيا في دنيا الإيمان وتسمو بحلاوته فهو منبع صاف ما ذاقه العبد إلا وقع صريعا لهواه وما ينفك يبتعد عنه وآيات الله الداعية إلى الذكر كثيرة.

والكرامة موجودة، والله تعالى يرزق بها من يشاء من عباده المتقين المخلصين، أهل التقوى والورع، والدعاء يرفعه العابد إلى ربه فيأتي الجواب غالبا في الحال، وقد نجد في وقتنا من يحمل هذه الصفات، لكنه يكون مستورا بين الناس، فورعه وزهده يمنعه من المباهاة، وإلا دخل في الرياء والغرور فيمنع الإجابة.

ومما جاء في كرامات الزهاد والأولياء كإبراهيم بن أدهم كان مع جماعة على ظهر سفينة في البحر، وكرامة الله لوليه هي من باب قدرته تعالى على خلقه وإظهار التباين بين العباد أمر واجب وسنة حاصلة فالخلق أمم متجمعة و جب التفاوت فيها و بزوغ الولي و ظهوره أمر دال على حكمة الله و قوته في خلقه حتى يتعظ من هو عنه ساه وعن عبادته لاه فيدرك أن القوة و السعادة

هي لمن أطاع الله فهو في الأولى عزيز كريم وبالأخرة مخلص بجنات النعيم وكل ميسر لما خلق له فرجال الدين وشيوخه لهم سيرة تشهد لهم بالعلم والوقار وحياتهم كلها مليئة بالأعمال الصالحة والرفيعة لا تلهيهم تجارة ولا لهو ولا مال عن ذكر الله، عرفوا لله قدرا وحقا فجزاهم عن حقيقة ما عرفوا.

3. السحر:

عرف السحر عند كثير من الأمم، وقد مارسه بعض الكهان و معهم السحرة، وذلك بإنشاء علاقة تجمعهم مع الشياطين، فيوظف لأغراض شيطانية لأنه صادر من شيطان، هذا السحر نجده في المغرب وقد رآه الريحاني وأخبرنا به، وهو يمتد لجذور تاريخية تمت بصلة لأصل بربري فينيقي، كما عرف هذا الجنس عند الآشوريين والبابليين والمصريين القدماء، وقد ذكره الإسلام وأقر بحقيقته، فقد قال تعالى: ((واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون))¹⁹.

ونستطيع القول أن السحر له تاريخ طويل، ويعود إلى عهد الفراعنة، أو ما كان في عهد النبي سليمان عليه السلام، وما نراه في معجزة نبي الله موسى عليه السلام، فالله تعالى أعجزهم في جنس عملهم وأبهرهم، كما نجد له جذور في المغرب، وخاصة عند قبيلة غمارة، لما جاء فيها عن حاميم الذي ادعى النبوة، وسبب ذلك راجع إلى الجهالة التي كانت تحفهم، فلا يكادون يفقهون قولا ولا يعقلون شيئا، فجاء هذا الرجل وصب عليهم خرافته وأكاذيبه وتعاويذه، فصدقوه،

صورة المجتمع المغربي من خلال رحلتي أمين الريحاني والحسن بن محمد الوزان

ويقول عنه ابن خلدون: ((كان غمارة هؤلاء عريقين في الجاهلية بل الجهالة والبعد عن الشرائع، بالبداوة والانتباز عن مواطن الخير، و تنبأ فيهم من مجكسة حاميم بن من الله بن جرير بن عمر بن رحفو بن آزال بن مجكسة، يكنى أبا محمد، و أبوه خلف تنبأ سنة ثلاث عشرة وثلثمائة بجبل حاميم المشتهر به قريبا من تطوان، واجتمع إليه كثير منهم و أقروا بنبوته وشرع لهم الشرائع والديانات من العبادات والأحكام، وصنع لهم قرآنا كان يتلوه عليهم بلسانه))²⁰.

إن هذا السحر الذي يعلق بضعاف النفوس والإيمان، هو من قيادة الشياطين الذين يضعون جنودا لهم من الإنس، يعملون على إجبارهم بأعمال معينة يكون بها مخالفة للشرع، وخروج من ملة الإسلام ورحمة الله، ومن ذلك البول أو التغوط على القرآن الكريم، أو ما شابهه، ثم يأتيه الشيطان بالأخبار ويساعده على أعماله، ويقال في المغرب أن أكثر الناس تعاطيا للسحر هم العواتق كما ذكر ابن خلدون: ((وأخبرني المشيخة من أهل المغرب أن أكثر منتحلي السحر منهم النساء العواتق، قال: ولهم علم استجلاب روحانية ما يشاءونه من الكواكب، فإذا استولوا عليه وتكنفوا بتلك الروحانية، تصرفوا منها في الأكوان بما شاءوا والله أعلم))²¹، لكن الريحاني له رأي آخر يقول: ((ويجب أن أقول في ما يختص بسواحر المغرب الحاضر، أنهم لسن كلهن من العواتق، فقد شاهدت بين نسوة بني غرفط الراقصات الذاكرات، المستجلبات روحانية الكواكب، عددا غير قليل من الصبيات الجميلات الوجوه و العيون و القدود، هي الطرق و شعابها الجنسية، المكنونة و المكشوفة، هم الأولياء وأشياعهم، وفيهم الطالب والطالبة لوجه الله، والساحر والساحرة لوجه الحبيب في الحياة الدنيا، و لهم الزوايا التي لا تحصي))²².

ونجد السحر يهيمن على كثير من الشعوب، لذا نجده في حكاياتهم و كلامهم اليومي فأصبح حقيقة و أمرا معمولاً به، و السحر يكون أكثر فعالية في الليل، فهو فضاء تتحرك فيه الشياطين بكثرة، و حتى اللصوص فيه تكثر، وكل عمل فيه شبهة يكون فيه، حتى يبعد عنه البصر ويكون عمله في السر، ((وروي أن سائلا سأل مسيلمة كيف يأتيك الذي يأتيك فقال في ظلماء حندس، وسأل النبي كيف يأتيك فقال في مثل ضوء النهار، فاستدل بهذا على نبوته، وإن الذي يأتيه ملك من عند الله، وأن الذي يأتي مسيلمة شيطان، ولهذا كان سلطان السحر وعظم تأثيره، إنما هو بالليل دون النهار، فالسحر الليلي عندهم هو السحر القوي التأثير، ولهذا كانت القلوب المظلمة، هي محال الشياطين وبيوتهم ومأواهم، والشياطين تجول فيها وتتحكم كما يتحكم ساكن البيت فيه، وكلما كان القلب أظلم كان للشيطان أطوع، وهو فيه أثبت وأمكن))²³، من هنا أضى السحر عادة وظاهرة اجتماعية، وخاصة ما نراه اليوم بين أفراد المجتمع، وهذا راجع إلى قلة التوعية الدينية، وضعف الإيمان، وقد نقدر لهذا بعض الأسباب، وذلك كعدم قدرة البعض على كسب الرزق بالحلال، فيتوجهون إليه بالحرام، فيعمدون إلى السحر لغواية الناس، وأخذ أموالهم بالباطل كالمشعوذين والكهنة، وما نراه عند النساء من تزويج البنات، وإحكام السيطرة على الرجال، نسأل الله العافية.

صورة المجتمع المغربي من خلال رحلتي أمين الريحاني والحسن بن محمد الوزان

4. خاتمة:

من خلال ما تقدم في هذا المقال الذي حاولنا فيه تتبع صورة المجتمع المغربي من خلال رحلتي أمين الريحاني ورحلة الحسن الوزان، والتي حصرنا فيه الصورة الدينية المتمثلة في اللباس خلال المناسبات الدينية ورجال التصوف والسحر، نلمس أن الخطاب السري الرحلي قد حاول تتبع كل الممارسات الشعبية، فقد كان الرحالة يسجل كل المشاهدات والأقوال التي تصادفه خلال مساره الرحلي.

بالرغم من أن الرحلتين متباعدتان في الزمن إلا أننا وجدنا أن الصورة تبدوا تقريبا متقاربة، ما يدل على إن الشعوب حافظت على تراثها وعاداتها، خاصة ما ارتبط منها بالجانب الديني.

كما إننا نلمس إن الخطاب السري الرحلي لم يتغير كثيرا، فقد حافظ على الأسلوب التقريري الوصفي، كما لازمه العجائبي الرامي إلى ذكر الغريب والغير المألوف، ليشد إليه القارئ، كما جمع المؤلف فيه بين الواقعي والمختيل.

5. الهوامش:

- 1 - أمين الريحاني، المغرب الأقصى، تحقيق أمين ألبرت الريحاني، المؤسسة العربية للنشر، بيروت 1986، ص 124.
- 2 - الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983، ج 01، ص 264.
- 3 - المصدر نفسه، ص 252.
- 4 - أمين الريحاني، المغرب الأقصى، ص 253.
- 5 - أمين الريحاني، المغرب الأقصى، ص 403.
- 6 - المصدر السابق، ص 261.
- 7 - المصدر نفسه، ص 262.
- 8 - المصدر نفسه، ص 404.
- 9 - سورة البقرة، الآية 9.
- 10 - الأمالي في لغة العرب، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، الناشر: دار الكتب العلمية، 1398هـ 1978م، بيروت، ص 286.
- 11 - المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبهشي، ج 2، ص 55.
- 12 - إحياء علوم الدين، محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، دار المعرفة بيروت، ج 01، ص 84.
- 13 - أمين الريحاني، المغرب الأقصى، ص 353.
- 14 - يوسف محمد طه زيدان، عبد القادر الجيلاني باز الله الأشهب، دار جيل بيروت، ط01، 1991، ص 22.
- 15 - أمين الريحاني، المغرب الأقصى، ص 351.
- 16 - المصدر نفسه، ص 303.

[illegible]